مقالة

يوم الغدير في الشعر العربي

محمد الخالدي

كان وما زال الشعر ديوان العرب الذي دونت فيه كل شاردة وواردة في حياتهم.ولاشك أنّ حادثة الغدير من الحوادث التاريخية المهمة التي جرت في حياة الإسلام، ولهذا دوّنها الشعراء المسلمون شعرا،مازلنا نردده ونتلذذ بسماعه،وهو يصوّر لنا ذلك الحدث الكبير الذي حصل بعد فتح مكة في عهد الرسول الأكرم محمد ﷺ، وعلى الرغم من مرور أكثر من ألف وأربعمائة عاما على تلك الوقفة التي تمثّلت ببيعة الغدير الأغر التي تكتسب أهميتها في كونها لم تأتِ كحدث عابر مر بحياة المسلمين،وإنما جاءت لتكرس مفهوما عقائديا يتجسد بالولاية التي اختص بها الله تعالى،الإمام علي عليه السلام ليتبوأ مكانا قياديا في مسيرة الأمة،ولاسيما بعد انتقال خاتم النبيين محمد ﷺ إلى الرفيق الأعلى. وقد تجسد ذلك الأمر الرباني بما أنزله الله على نبيه الكريم ﷺ ،يأمره أن يصدح ويبلغ بذلك النبأ العظيم، من دون تردد ولا وجل، مخاطبا له بالقول: ﴿يا أيها النبي بلغ ما أنزل إليك من ربّك﴾ (المائدة -٦٧).

والحق إنّ بيعة الغدير كانت في صلب توجهات العقيدة الإسلامية منذ اللحظة الأولى، إذ أنبرى شاعر الرسول حسّان بن ثابت لتدوينها،قائلا:

يناديهم يومَ الغديرِ نبيهُم
بخمٍ وأسمع بالـــرسول مناديا
فقالَ:فمن مولاكم ونبيكم
فقالـــوا ولم يبدو هناك التعاميا
إلهكَ مـــولانا وأنتَ نبينا
ولم تلقَ منا في الـــولايةِ عـاصيا
فقالَ له: قُمْ يا عليُّ فإنني
رضيتك من بعدي إماما وهاديـا
فمن كنتُ مولاه فهذا وليّه
فكونوا لـــه أتباع صـدق مـواليا
هناك دعا اللهم: والِ وليه
وكـنْ للذي عادى عليّا مـعاديا

ثم تبعه عدد كبير من الشعراء المسلمين متخذين ذات المنحى، وهم ينشدون ويصدحون بقصائدهم، مستذكرين صاحب هذه الذكرى العطرة،الإمام علي ابن أبي طالب عليه السلام،وهو يتوج إماما ووصيا وخليفة للأمة.

وهنا لابد من التذكير بالجهد الكبير الذي بذله العلاّمة الراحل عبد الحسين الأميني رحمه الله في تأليف موسوعته الشهيرة الموسومة (الغدير في الكتاب والسّنة والأدب)،والتي تعد من أهم الموسوعات الإسلامية التي تصدت لهذه القضية الكبرى.

إنّ ما قيل في الغدير من الشعر منذ القرن الأول الهجري وإلى يومنا هذا كبير وكثير بحيث لا يستطيع أحد أن يحصيه، ولهذا سنضطر لاختيار بعض المقطوعات الشعرية المنتقاة التي تتلاءم مع هذه المناسبة معرجين عليها ببعض اللمحات والتعليقات التي تتناسب ومقام كل قصيدة.

ولنبدأ بابن الرومي الذي يصف عليّا كالتبر المصفى، مبينا أنّ محله من الفضل هو كمحل الشمس في العلو،أو البدر في الليلة الظلماء، معرجا على يوم الغدير،قائلا:

وأراه كالتبر المصفى جـــوهرا
وأرى ســـواه لنـــا قـــديه مبهرجا
ومحـــله من كـــل فضـــل بيّن
عال محل الشمس أو بدر الدجى
قـــال النبي له مـــقالا لم يكن
يوم الغـــدير لسـامعيـــه ممجمجا
من كنت مـــولاه فذا مولى له
مـــــثلي فـأصبح بالفـخار مـــتوجا

ويستغرب الشاعر أبو فراس الحمداني متسائلا لمن ينكرون بيعة الإمام علي عليه السلام، فيقول منشدا:

أتراهـــم لم يسمعوا مـــا خصّهُ
منه النبي من المقال أباهُ؟
إذ قالَ يومَ (غدير خمّ) معلناً:
من كنت مولاه فذا مولاهُ
هـــذي وصيتهُ إليه فافهـــموا
يا من يقولُ بأنَّ مـــا أوصاهُ
قروا من القرآن ما في فضله
وتـــأملوه وافهمـــوا وافحواهُ

وهكذا تتواصل القصائد تنشد للغدير مستهجنة قول المخالفين والمنكرين والجاحدين.فهذا الشاعر أبو محمد المنصور بالله يشير إلى هذا المعنى قائلا:

وقال فيه المصطفى: أنت الولي
ومثله: أنتَ الوزيرُ والوصي
وكم وكم قالَ لهُ: أنتَ أخي!
فأيهم قـــالَ لـــهُ مثلَ علي؟

* * *

وهل سمعتَ بحديثِ موسى
يـــومَ الغديرِ والصحيحُ أولى
ألم يقـــلْ فيه الرسول قـــولا
لمْ يبقَ للمخالفيـــن حـــولا
وهلْ سمعتَ بحديثِ المنزله
يجعلُ هـــارونَ النبي مثله

ونلمح ذات المعنى في أبيات من قصيدة للشاعر النجفي محمد علي الأعسم قائلا:

ســـألتُكَ أيها الماشي عـــنادا
فأوقـــعكَ العـــنادُ بكل هونِ
مَنْ المخصوصُ يومَ غديرِ خمٍ
من الرحمنِ بـــالفضلِ المبينِ
ومَنْ قـــالَ النبيُّ لـــه بـــأمرٍ
من الباري أتـــاه عن يقـــينِ
ألا مَنْ كنتُ مـــولاه فـــهذا
عليُّ الطهرُ مولاهُ أسمعـــوني
جعلتُ خليفتي فيكـم عليّـــا
وصي وازئي قـــاضي ديـوني

أما الشاعر علاء الدين الحلّي الشهيفي فيرى أن في بيعة الغدير للإمام علي قد كمل الدين، واشتد عضده بعد أن أصابه الوهن،ولهذا اختاره النبي الكريم ﷺ ليكون له أخا ولم يختر سواه أحدا من بين صحابته، فيقول منشدا:

يا من كمل الـــدين الحنيف وللإ
ســـلام من بعد وهـــن حـــيله عضدا
أنت الذي أختارك الهادي البشير
أخا وما سواك أرتضى من بينهم أحدا

وفي هذه الأبيات نرى الشاعر إبراهيم الكفعمي العاملي يهنئ يوم الغدير نفسه بهذه المناسبة ويعدّه يوما للحبور والسرور حيث تم به إكمال دين الإله سبحانه وتعالى وكذلك تمت به نعمة الربّ الغفور. فيوم الغدير كما يراه الشاعر هو يوم العقود ويوم الشهود ويوم الفلاح والنجاح والصلاح لهذه الأمة،إذ تتوج به الإمام علي ﷺ الإمارة، فيقول:

هنيئا هنيئا ليوم الغـــدير
ويـــومِ الحـــبورِ ويوم السرورِ
ويومِ الكمالِ لدينِ الإله
وإتـــمام نعمـــةِ ربٍّ غـــفـــورِ
ويومِ العقودِ ويوم الشهودِ
ويـــومِ المدودِ لصنو البشيرِ
ويومِ الفلاحِ ويومِ النجاحِ
ويـــومِ الصلاحِ بكلِ الأمورِ
ويوم الإمـــارةِ للمـــرتضى
أبي الحسنين الإمام الأميرِ

ويستمرُ صوتُ الشعراء صادحا ليوم الغدير ليجسد معاني هذه الذكرى الخالدة،فهذا الشاعر والخطيب السيد خضر القزويني ينشدُ للغدير، ويرى أن العرب قد بلغت مناها بيومه المجيد،فيقول:

عيـــدُ الغـــديرِ بكَ العـــربْ
بلغـــتْ منـــاهـــا والأربْ
وغـــدا لها بك في الورى الـ
مـــجد الأثـــيل ولا عجبْ
وحـــدتَ نشرَ صفوفـــها
ومنحتَ وحدتَها الـــغلـــبْ
ورفـــعـــتَ رايتَـــها وفـــي
عليـــائـــها كنـــتَ السببْ

وينحو الشاعر جعفر النقدي منحى شعريا تساؤليا مبتدأ قوله بالسؤال عن الأحاديث التي وردت في ذكر فضل هذا الفتى الكرار عليه السلام، مسترشدا بما روي من أخبار الثقاة عن بيعة الغدير وكيف جرت أحداثها على مرأى من تلك حشود الحجيج وهم يلتقون في البقعة المباركة (الغدير)،فيقول واصفا:

وسلْ الأحاديثَ التي في فضلهِ
أمستْ لها أيدي العدو تحررُ
يـــومٌ به جبريلُ جـــاءَ مـــخبـــرا
عن ربّهِ وهـــو السميعُ المبصرُ
يا أيها المختارُ بلغْ في الفتى الـ
ـكرار ما قد كنتَ قبلا تسترُ
واللهُ يدفعُ كلَ كيـــدٍ خفـــته
من معشرٍ قـــد خالفـــوا وتكبروا
فأقامَ في حرِ الظهيـــرةِ مـــاله
غيرَ الحدائجِ ما هـــنالـــك منبرُ
فرقى وكفُ المرتضى في كفهِ
وغـــدا يـــنادي والبريـــةُ حُضَرُ
مَنْ كنتَ مـــولاهُ فهذا حيدرٌ
مـــولاهُ والله المـــهيـــمن يـــأمرُ
فهو المطاعُ وخيرُ رجالكم
فدعوا جميعاً بالقبـــولِ وكبروا

ويطالعنا الشاعر خليل مغنية بهذه الأبيات التي تفيض بعطر الولاء لإمام الحق والعدل والإنسانية،أبي الحسنين فيقول:

أقـــرآنٌ آي المـــدحِ في أسفارهِ
وشـــممتُ آيَ الـــذكرِ في أزهارهِ
ورأيتُ كيفَ اللطفُ وضاءُ السنا
غمرَ الجهاتَ الستِ من أنـــوارهِ
وعـــرفتُ أنّ اليوم يـــومَ سعـــادةٍ
قد فازَ فيها المـــرتـــضى بفـــخارهِ
ردّ على الأسماعِ ذكـــرَ ولايةٍ
هي تحـــفةُ الباري إلى كـــرارهِ
ما في البريةِ غيره كـــفـــؤٌ لها
فأتتهُ إذ كانـــتْ على مـــقدارهِ

أما أبو القاسم الزاهي البغدادي فيؤكد في شعره على أن الخلافة من النبي ﷺ كانت لعلي عليه السلام بأمر من الله وإنها مثبتة بالخبر الصادق المأثور وقد جاء بها نص سماوي فما كان من الرسول الأكرم ﷺ إلا أن يبلغه للناس،يقول الشاعر:

إنّ الخلافـــةَ من بعـــدِ النبي لهُ
كانتْ بأمرٍ من الرحمـــنِ مقدورِ
مَنْ قالَ أحمد في يـوم (الغدير) لهُ
بالنقلِ في خـــبرٍ بالصدقِ مأثـــورِ
قُمْ يا عليُّ فكنْ بعدي لهـم عـــلماً
وأسعد بمنقلبٍ في البعضِ محبورِ
مولاهم أنتَ والموفـــي بـــأمرهـم
نصٌ بوحـي على الإفهامِ مسطورِ
وذاك إنّ إله العـــرشِ قـالَ لـــه:
بلغْ وكـنْ عند أمري خيرَ مأمورِ

ويسترسلُ الشاعر الدكتور مصطفى جمال الدين ببعض أبياته مخاطبا متسائلا جماهير المسلمين: (كيف يظما من يجري فيه الغدير؟) فيقول:

ظمئ الشعرُ أم جفاكَ الشعورُ
كيفَ يظما من فيه يجري الغديرُ؟
كيفَ تعنو للجدبِ أغراسُ فكرٍ
لعلي بهاتـــمُت الجـــذورُ؟
نبتتْ - بين (نهـــجه) وربيـــعٍ
من بنيه غمر العطاء - البـــذورُ
وسقاها نبعُ النبي وهـــل بعـ
ـد نميـــرِ الـــقرآنِ يحلـو نميرُ؟
فزهتْ واحـــةٌ ورقتْ غصونٌ
ونمـــا بـــرعـــمٌ ونمـــتْ عطورُ

ويتساءلُ الشاعر النجفي الراحل عبد الحسين حمد الكعبي، هل الأمة لم تكن تعرف بأن علي عليه السلام،هو الوتر وشفيع القرآن؟ ألم تسمع ما قله النبي ﷺ فيه؟ لماذا ردت على أعقابها متناسية لشرعة الهادي ومنهجه؟كل هذه التساؤلات ضمنها قوله بأربع أبيات،فيقول:

ولو أصخنا فـ (بلّغْ) عنـك مُنبئة
بأنـــكَ الـوترُ والقرآنُ يـــشفعهُ
وقولة المصطفى: (مولاه حيدرة
من كنتُ مـولاه) فوقَ الشمسِ ترفعهُ
لكنما القومُ قد ردوا على عَقبٍ
لـلاتِ هـــذا وذا اللغنم يتـــبعهُ
كأنّما شرعـــةُ الهادي ومنهجهُ
زرعٌ وكانَ لهم ما كانَ يزرعـــهُ

ولأنّ ما قيل في الغدير لا يتسع له مقالنا هذا فسنختتم بما قاله الشاعر مهيار الديلمي الذي يخاطب الإمام الحسين عليه السلام مذكرا بيوم السقيفة ومقارنا بينه وبين واقعة كربلاء،إذ يعد الثانية من نتائج الأولى، فيقول:

فيومُ السقيفةِ يا ابـنَ النبي
طَـــرّقَ يـــومَكَ في كربلا
وغصبُ أبيكَ على حـــقهِ
وأمـــكَ حـــسّنَ أن تُقـتلا

((النصوص الشعرية مستلة من داوين الشعراء ومن موسوعة النجف الأشرف)).

المصدر: مجلة الولاية، العدد ١٠٨

قراءة في كتاب

سياحة في الشرق

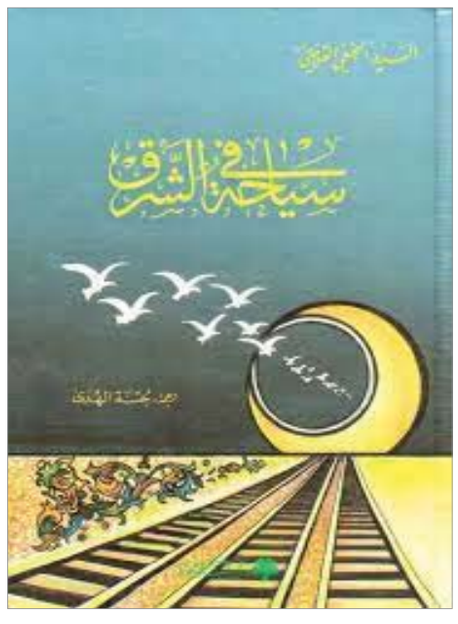

بعد قراءة تراجم علماء الشّريعة الّتي كانت تقتصر على ذكر اسم المترجم وأساتذته وتلامذته، يبقى القارئ في حيرة لمعرفة كيف كان نمط حياتهم أثناء الدّراسة،كيف كانوا يدبّرون معائشهم؟ ماذا اختلج في صدورهم؟ وكيف كانوا يواجهون المشاكل الّتي كانت تطرأ أثناء البحث والنّقاش؟

سياحة في الشّرق هو الكتاب الأول في العربية الّذي يعرض بل يوثق السّيرة الذّاتية لحياة طالب العلم الحق -السّيد محمد حسن النّجفي القوجاني - الّذي أتى من آخر الدّنيا لا يحمل مالًا ولا متاعًا ولا حسبًا ونسبًا يمكنه من الحصول على امتياز ما في بعض الحوزات ومدارس العلم. كما ولم يعرف تزلّفًا لهذا وذاك ممن يتطاول على الرّئاسة في بعض مدارسها لينال غرفة باردة في زواياها الرّطبة أو بعضًا من كسرات الخبز اليابس لتقيه جوع ما يقارب ثلاث ليال متتالية.

الأيام الأولى في قوجان

الصفحات الأولى من الكتاب تعرض سنيّه الأولى في قريته وكيف كان يعمل بنشاط ومثابرة في الزّراعة ومساعدة أبيه، كارهًا للمدرسة والكتّاب، مجبرًا على ذلك بطلب من والده الذي وعلى الرّغم من مرارة الحياة عليه كان يحرم نفسه من قوت يومه ليؤمن لابنه ثمن كتاب يدرس فيه، راغبًا بأن يكون ولده مثل الميرزا حسن الشيرازي "وإن لم تكن فكن أقل منه درجة".

بعد تنقّله بين مدارسها الدّينيّة، ثار السيد على شيوخ الكتاب وعلومهم ورفض مرارًا الالتحاق بهم بعد أن عايش بعضها ورأى الأخرى ملآى بالقذارة والمشادات الكلاميّة الّتي وصلت بأحد أساتذته إلى نهره بالجحش والكلب النّجس لأنه لم يلملم أطراف ثوبه عن حافة الحوض، إلى أن بدأت مسيرته خارج قريته وسلك أخيرًا مسير السّالك الصالح.

وعلى طريق السّمو عثرات

واستكمالًا لهذه المسيرة يسرد السّيد التّفاصيل الدّقيقة في رحلته في هذا العالم. فبعد مضي عام على بقائه بعهدة ذلك الأستاذ الّذي لم يدرّسه أكثر من بضع أوراق من كتاب "قطر النّدى"، سمح له الأخير بالذّهاب إلى أحد الطّلاب ودراسة "السّيوطي"، وهنا لفت سماحته إلى بدء حرصه العجيب على الدّرس والمتابعة.

استطاع إتمام كتاب الجامي بثلاثة أشهر وهذا يعدّ إنجازًا لدى بعضهم. وبعد زلزال وقع في المدينة ونجا منه بأعجوبة اضطّر إلى للانتقال إلى سبزوار حيث أنهى خلال خمسة أشهر سبعة أوراق من المطوّل ومثلها من كتاب الشّرائع.

ومن ثم عرض رحلته إلى مشهد حيث منبع العلم عند أنيس النّفوس الإمام علي بن موسى الرّضا عليه السلام، حيث كان برفقته زميله اليزدي. وبعد سنتين من المكوث في مشهد ماتت أمه ولكنه لم يعد إلى القرية بل أراد البقاء بعد تذوق حلاوة الدّرس ومتعته.

يعرض الكاتب بشكل صريح لما واجهه من المشاكل مع أصحاب اللّحى حسب تعبيره ورجال الدّين في الحوزات هناك حيث أجبر مرّة وبعد انتظار طويل لغرفة تأويه برد مشهد القارص على التّخلي عنها لصالح أحد الطّلبة المتزلّفين. وبعدما ضاق ذرعًا قرّر الهجرة إلى أصفهان لأنه وحسب اعتقاده أنّ الدّراسة في الغربة أفضل لطالب العلم الحق.

أصفهان بلاد القوجاني الموعودة

تعرّض في الفصلين الثاني والثّالث إلى حياته في أصفهان وتفاصيلها. هناك فوجئ السّيد أن تلك المدينة الّتي تحمل مشاق الطّريق الطّويل جدًّا للوصول إليها لم تلبّ طموحه المعرفيّة، حيث كان في مرحلة علميّة متقدّمة عن أقرانه.

أكل قشور البطيخ والخبز اليابس المحروق ونام بلا طعام لأيّام بلياليها. اضطر بعدها لبيع كتاب له لأن حفظ الجسد والنّفس من أوجب الواجبات ورقي الرّوح مرهون بالجسد، وهذه الموقف كان محل جدال مع أحد زملائه دفعه لنقد نظرية الطّبيعيين والمادّيين في شأن غذاء الرّوح مقابل غذاء البدن وأولوية الواحدة على الأخرى.

وصولًا إلى النجف

يأتي الكاتب بعد الحديث عن حياته في إيران للانتقال إلى الحديث عن حياته في العراق وخاصة النجف الّتي دخلها في السادس من رجب بهدف الزّيارة وليس الإقامة. لكن السيد النجفي القوجاني وبعدما رأى كل هذا السّحر للنجف قرّر البقاء فيها من أجل الدّراسة على الرّغم من أنه لا يعرف أحدًا فيها.

عاش الأشهر الأربع الأولى محرومًا من كل شيء على حدّ تعبيره، كان يأكل صيفًا الخبز اليابس وعندما يكون هناك طعام فهو خبز ولبن، فبين طيات الكتاب وصف دقيق لحياة طالب العلم وما يعانيه من مشقّات لا يعلم فيها إلّا خالقه.

بدأ درس البحث الخارج في مباحث الملا صدرا، ودأب على حضور دروس الآخوند الملا كاظم الخراساني، طيلة فترة مكوثه فيها كان يكتب بعد كل محاضرة له تقرير مفصلًا عمّا سمعه منه. وكان لهذا المعلم بل الأب الرّوحي له أثرٌ بالغٌ على السّيد النجفي القوجاني على الرّغم من عدم وجود معرفة شخصيّة بينهما طيلة العشر سنوات.

زواجه

يتكلم الكاتب عن سيرة حياته بكثير من التّفاؤل والتسليم، هذا ما تشعر به بدءًا من العنوان حيث اعتبر سفره المضني راجلًا أو على دابّة هزيلة من بلد إلى بلد خلال عشرين سنة من عمره أنّه سياحة في الشّرق. وهكذا كان زواج من لا يملك بضع قرانات لسد رمقه.

يفصّل السّيد حيثيّاته الّتي تطلّبت أكثر من خمس وعشرين تومانًا أتته من حيث لا يحتسب بفضل العناية الإلهيّة والتّسديد الّذي كان من أسبابه علاقته الرّوحيّة بالإمام علي عليه السلام. عارضًا الكثير من التوفيقات الإلهيّة الّتي إن سمعته عن غيره ربّما اعتقدته ضربًا من ضروب الخيال.

الحركة الدستوريّة

في الفصل الخامس من الكتاب توثيق لأحداث الحركة الدستوريّة وما خلّفت من تبعات على طلّاب الحوزات سيّما في النّجف وكربلاء. وكما لم يغفل السّيد عن انتقاد علماء السّوء في هذه الفترة التّاريخيّة الحسّاسة وأفعالهم البغضاء على الرّغم من أنّ بعضهم تتلمذ على يد الآخوند وأرادو أخذ لقب الاجتهاد لكي يحصلو على سهم السّادة والرّئاسة والمناصب غافلين عن محاسبة أنفسهم بحساب أمّة النّبي ﷺ.

النجف في ظل الحرب العالميّة الأولى

يؤرّخ الكاتب خلال الفصل السّادس لفترة دخول الإنكليز وضباطهم إلى النّجف، وكيف ثار ودافع أهلها عن المقام وأرضهم رافضين الاحتلال عازمين على المقاومة مهما عانوا من عطش وجوع. عارضًا تبعات هذه الأوضاع على الحياة المعيشيّة والسّياسية على النّجف وأهل المدينة. وقد كان مصرًّا على الرّغم من عدم تمكنه من النوم لأكثر من ساعتين ليلًا حينها بسبب العمل على قول "البلايا تظهر محبة الخالق لأنها شعار الصّالحين".

وبعد خمس وعشرين سنة من الغربة يختم ذلك العالم الكبير مسيرة قضى منها في أصفهان وفي النّجف، بقرار العودة إلى مسقط رأسه قوجان.كان ذلك بناءً على طلب أهل مدينته الّذين تكفلو بتكاليف سفره الأخير، حيث أسس حوزة علميّة على أسسٍ حقّة تشبه تلك الّتي رسمها في ذهنه خلال سياحته في ذلك الشّرق.

المصدر: شبكة الفجر الثقافية